العمارة القاسية *

أ.د. وجيه فوزي يوسف

إن العمارة المتواضعة يمكن تدريسها وتبسيطها إلى مجموعة من الأسس والقواعد، أما العمارة الجيدة فلا يمكن تقنينها.

إن نظرة واحدة إلى العمارات في الشارع تكفي لأن تفسد يومك، وهذه العمارات إن اختلفت في تشكيلاتها تتشابه معظمها من الداخل، وكأن هذه النماذج المتكررة من التصميمات هي الحل الأمثل. أما المشاكل التي تظهر فيما بعد نتيجة هذه التصميمات فمتروكة لقوى الطبيعة لكي تتعامل معها أو يحلها من يشغلها.

نجد هذه العمارات أيضاً تتكرر في طول البلاد وعرضها بدون أدنى اعتبار عن مدى ملاءمتها لجغرافية الموقع وحالة الطقس وطبيعة وعادات وتقاليد المجتمع الذي سوف يعيش فيه.

إننا نتساءل هل مهمة المهندس المعماري أصبحت مجرد عمل فقاقيع من الخرسانة والطوب وتخيلات يقدمها إلى عملائه الذين وثقوا فيه؟

إذا كان حقاً ما قاله ونستون تشرشل وأيضاً لوكوربوزييه بأن المبنى الذي نشكله سوف يشكلنا نحن بدورنا فإن النتيجة الحتمية للعمارة التي نعيش فيها ستكون الملل والانطوائية والإحباط.

فإذا نظرنا نحن إلى بيوتنا ومدارسنا ومستشفياتنا وإلى مشروعات الإسكان وقارناها بتصميمات السجون فسوف نجد أن الاختلاف ليس بالكثير وكلها مصممة بنفس العيوب، هواء مكتوم، إظلام في كثير من الأماكن، طرقات يدوي فيها صدى الصوت، زغللة من كل فتحة شباك، ومصابيح عارية مدلاة، وحياة يغلب عليها الانغلاق إلى الداخل.

لقد أصبح السكان من كثرة تأقلمهم على هذه الحياة المغلقة داخل مساكنهم يجدون صعوبة كبيرة في العيش وممارسة الحياة خارجها.

وقلة العلاقة بين داخل البيوت وخارجها أدت إلى عدم تجاوب السكان مع الخارج وقلة فرص تقابل الناس مع بعضهم البعض على مستوى الشارع

---

* المجلة المعمارية (المعمار)، السنة ٣، العددين السابع والثامن ، ١٩٨٧، ص ٤٦ – ٥١

والحي. وعدم انتماء الناس إلى بعضهم. وتعاملهم على مستوى الحي قد يساعد على تحلل حضارتهم واكتسابهم قيماً جديدة لم تكن مناسبة للمجتمعات التي سبقتهم.

فإذا أضفنا إلى ذلك ما جلبته التكنولوجيا في المحيط الخارجي للمباني مثل الطرق المعلقة والأنفاق ووسائل مواصلات متقدمة وتكنولوجيا بنائية حديثة تستحدث بسرعة كبيرة فسوف نجد أن هذا قد ساعد على زيادة الهوة بين الداخل والخارج ومع مرور الوقت فإن الترابط الضئيل الذي كان بينهم سوف ينفرط عقده. فإذا كانت هذه الأحمال النفسية سوف تُفرض على السكان بدون إيجاد حل لها ونحن على مشارف القرن الواحد والعشرين فإن ذلك سوف يجبرهم على أحاسيس جديدة كثيرة التنوع ليس لهم قبل بها مما يجرهم جراً إلى الانعزالية والانهزامية.

إن المعماري يقوم بحبس السكان باسم الخصوصية ويفسر هذه الخصوصية على أنها العلاقة بين السكن والمساكن المقابلة كلما زادت فرص التعرض داخل الوحدة السكنية إلى الجيران كلما قلت الخصوصية وكلما زادت الاستحكامات التي يضعها المعماري في التصميم.

إلا أن المشكلة الحقيقية تكمن داخل الوحدة السكنية نفسها لأن مشكلة تعرض السكان إلى تطلعات الجيران يمكن تجنبها بتوزيع فتحات الشبابيك ووضع المفروشات بترتيب معين أو بغلق الشباك. أما عدم الخصوصية بالداخل في حالة تعدد الأشخاص بالحجرات فكيف يمكن تجنبها؟

وهذا يدفعنا إلى الإشارة بأن الخصوصية لا يجب أن يُنظر إليها على أنها تتعلق بالنظر فقط ولكن للخصوصية أشكالاً متعددة أيضاً مثل السمع واللمس والرائحة أو عدم حرية الاختيار، وليس معناها فقط الانزواء على العيون.

وفي دراسة أجراها آبل على فتيات فرض عليهن البقاء في الوحدة السكنية فترات طويلة معزولين عن المجتمع الخارجي تبين اختلالا في مقدرتهن على التفكير المستقل والقيام بأنشطتهن اليومية وأصبحن يتقبلن التحكم والسيطرة من المسئولين عنهن.

وفي دراسة أخرى أجراها لوري وجد أن الناس المغلقين على أنفسهم نفوسهم منكسرة وغير قادرين على النظر إلى الناس وفي عيونهم ومن طوال فترات بقائهم داخل منازلهم أصبحت مشاكل العالم الخارجي أقل

إلحاحاً عليهم من المسائل البسيطة اليومية التي يقابلونها داخل منازلهم.

فإذا كانت الوحدة السكنية لا تقبل التعديلات لتلاءم خصوصية من بالداخل نتيجة تشدد المعماري فسوف يؤدي ذلك إلى الزحام داخل مكعبات ثابتة وهذا الزحام سوف يؤدي إلى شجار عنيف بين أفراد الأسرة الواحدة وربما إلى إصابات كان من الممكن تجنبها لو أن المعماري كان يقبل التغيير عن النمط المعروف.

لقد اعتقد المهندسون أن الناس قد استراحوا لهذا النوع من التصميم بغض النظر عن المواد المصنوعة منها وبغض النظر عن ميكانيكية وضعها وبغض النظر عن الغرض التي أُنشئت من أجلها هذه الحوائط.

لقد ظن المهندسون أن الناس أرادوا نوعاً من مخلوط الكتلة والفراغ من الضوء والظل وكل ما عدا ذلك فلا يعني شيئاً ولا مكان له عند الناس.

وبالرغم من ثبات التصميمات على ما هي عليه في معظم الحالات مع بعض التنويع في عناصر الإنشاء نجد الشعارات تُطلق من كل اتجاه مرة على أن الشكل يتبع الوظيفة ومرة أخرى بأن الوظيفة تتبع الشكل أو أن الأقل في الحقيقة كثير، ثم بعد ذلك نسمع أن القليل ممل وفي قول آخر أن المبنى يجب أن يكون ما يريد أن يكون عليه وأنه تعبيراً عن طرق الإنشاء والمواد المستخدمة وحالة الطقس بالمكان وأن المبنى لا يجب أن يبنى على تل وأن الزخارف على الحوائط جريمة وهكذا من شعارات تفسح المجال لتفسيرات لا أول لها ولا أخر في تضارب صارخ.

فبينما يقول رابوبورت أن المباني وهي تبدو هكذا ليست ببساطة انعكاساً لقوى طبيعية مثل الجو والمواد وطرق الإنشاء والتكنولوجيا وطبيعة الموقع أو أي سبب منفرد ولكنها نتيجة مجموعة كبيرة من العوامل الاجتماعية والثقافية نجد أن فنتوري يقول أن المجال المعماري يجب إعادة النظر فيه إذا كان الهدف هو التعرف على المجال المعماري وأهدافه المعقدة فلا ينفع التبسيط في الشكل أو التعقيد فيه إنما يجب أن يكون التنويع فيه والذي يكمن في العالم المبهم للإدراك البصري.

كما يجب أيضاً معرفة التعقيدات المتزايدة لمشاكلنا الوظيفية. وهكذا نجد أنفسنا مرة أخرى أمام اتجاه غير محدد كثير التأويل والتفسير.

أما راسكن في تقييمه للعمارة فيعتقد أن الزخارف هي الجزء الرئيسي في العمارة ويقول أن أنبل جزء في العمارة لا يكون في أن المبنى قد أحسن بنائه ولكن لأن النحت والدهانات قد عملت بنبل.

وبالنسبة لبرونو زيفي فإن العمارة هي أولاً وأخيراً فراغ ليس شكلاً ولا وظيفة ولكن مفتاح الفهم هو أن تلمس الفراغ وتعرف كيف تراه.

أما نيكولاس بفسنر يقول أن العمارة ليست تعبيراً عن المواد أو الوظيفة ولا بسبب الحالة الاجتماعية ولكن تعبيراً عن التغيير الروحي للعصور المتعاقبة والمتغيرة وهذا شيء مختلف تماماً عن التوعية الوظيفية.

والعجيب أن كل معماري القرن العشرون ركزوا على شعار واحد على أنه الهدف الهام الذي يجب تحقيقه لا مكان الحصول على المنفعة من المبنى كأن مشكلة المباني يمكن تبسيطها إلى هذا الحد. ولكن إذا رجعنا بذاكرتنا إلى الوراء فنجد أن رواد العمارة مثل فيتروفياس، وراسكن وغيرهم وضعوا أسساً ومواصفات لكي يكون المبنى نافعاً ومفيداً للناس.

فمثلاً قال فيتروفياس أن المبنى الجيد هو ذو الصفات الثلاثة وهي الوظيفية والمتانة والانشراح وقدرة المبنى على تسهيل أعمال الناس وإعطائهم المتعة البصرية.

أما راسكن فلقد تطلع إلى المبنى الذي يحقق ما يلي:

١- أن يفعل الأشياء الذي قصد له أن يفعلها على أحسن وجه.
٢- أن يتكلم جيداً ويقول الأشياء الذي قصد له أن يقولها في أحسن الكلمات.
٣- أن يكون شكله مستحباً وأن يسرنا بوجوده مهما كان الذي يفعله أو يقوله.

والشعار الواحد الذي ركز عليه معماريو القرن العشرين وهو الشكل يتبع الوظيفة ولكن إذا نظرنا حولنا وأخذنا فنادق الخمسة نجوم المقامة على شاطئ النيل بالقاهرة نجد أن اختلاف الشكل بينهم كبير إلى الحد الذي يجعل الإنسان يتساءل عما إذا كان ذلك بسبب تغيير في الذوق المعماري أو بسبب تطور مفاجئ في الصناعة الفندقية وهل الفنادق أصبحت تبنى حسب الوظيفية أم التراث المعماري؟

هل احتياجات ومتطلبات الإنسان غير مفهومة وهل هناك تقابل تتشابه فيه طبائع واحتياجات الإنسان الذي تبني له هذه الأبنية؟

إننا نعرف أن الإنسان الطبيعي يحتاج إلى ما يلي:

١- يحتاج إلى الهواء والماء والطعام.
٢- ينتج تنفس وعرق ونفايات أخرى.
٣- يحتاج إلى حماية وعزل من تقلبات الحرارة الشديدة.
٤- يحتاج إلى حماية من أشياء أخرى مثل الأمطار والرياح والأتربة والحشرات والضوضاء واللصوص.
٥- مصمم لكي يعيش في بيئة هادئة مريحة.
٦- محتاج إلى أشياء تنشط عقله وجسده.
٧- يحتاج إلى قبول وحب من رفاقه.
٨- يحتاج إلى خصوصية.
٩- يحب التعبد.
١٠- يحب التحرر والانطلاق.

والسؤال المطروح الآن هو هل وظيفة الإنشاءات العمرانية الحالية تلائم هذه الحقائق وهل طريقة تنظيم الفراغ معمارياً وعمرانياً يشكل عاملاً من عوامل جمالية ممارستها؟

إن علماء الإنسان والعلم النفسي أصبحوا مهتمين بدراسة تأثير ترتيبات المباني المختلفة على مجموعات الناس. وهذه الدراسات لها دلالات مهمة عند تصميم المجتمعات العمرانية. فهم يقترحون أن هناك حد أدنى وحد أقصى لمقاسات كل مكان يقوم الإنسان بنشاط فيه ويجب أن يكون هناك مقياسا أمثل لعلاقات هذه الأماكن ببعضها.

إن المعماري لا يبني من أجل الإنسان في حالة سكون، إنه يبني لإنسان اجتماعي،لإنسان يعمل. وهذا يشكل في حد ذاته مجموعة من المتناقضات وهناك نوعين من الوظيفية للإنسان.

وظيفية الجسد نفسه حيث يعمل الجسد ليحقق احتياجاته البيولوجية مثل الطعام والاستحمام والملبس والحماية من الاعتداء على جسده.

أما الوظيفية الأخرى التي يقوم بها الإنسان فهي العمل نفسه الذي يقوم

هو بأدائه وهو شيء صناعي مكتسب. فهو يستخدم يداه وعقله لإنتاج البيئة الصناعية مثل العمارات والطرق السريعة والرسم والكتب والموسيقى وعالم الدواء.

وكل وظيفة من هذه الوظائف تعتبر شيئاً ضرورياً وأساسياً للمدنية والحضارة، وهذه الأعمال التي يقوم بها تؤدي إلى التوتر والإرهاق وقد تشكل إحدى مراحل هذه الأعمال ضغطاً نفسياً عليه وقد يكون هذا الضغط بسيطاً أو فوق احتماله.

والإنسان بيولوجياً يحتاج إلى بيئة ديناميكية متوازنة ولذلك فإن التنويع هو أهم شيء عند الإنسان حتى يشعر بالراحة من الضغوط التي يتعرض لها في يومه.

ويجب ملاحظة أنه لا يوجد شخصين بنفس طريقة التجاوب لنفس العمل وحتى الشخص الذي يتجاوب مع عمل ما نجده يتجاوب باختلاف كبير لنفس العمل تحت ظروف عاطفية مختلفة.

كثيراً ما ينشأ التساؤل عما يدور وما يؤثر في إدراك الشخص وما يعانيه من الناحية الوجدانية والعصبية إذا كان نازحاً من بيئة كان قد تأقلم على مشاكلها ورتب حياته ووسيلة رزقه على أساسها متفهماً العلاقات المتشابكة التي مكنته من الاستمرار في الحياة بها إلى بيئة جديدة اضطر إلى الرحيل إليها وتختلف اختلافاً جزرياً ومصممة لنوعية أخرى من الحياة عن التي تعود عليها وبدون تواجد من يمهد له ويساعده على الانتقال إلى هذا المحيط المختلف.

إن الذي يحدث حينئذ هو أن تنشأ القلاقل لأن توقعات الشخص عن مستقبل حياته ليست في حدود طاقته الاستيعابية وليس في مقدوره أن يتنازل بين يوم وليلة عن كل العادات والتقاليد الذي جبل عليها وتمسك بها ودافع عنها وضحى في سبيلها.

نأخذ مثلاً الشخص الذي كان يعيش في بيئة تكونت عشوائياً ويعتمد في كسب رزقه على الدواب التي تشاركه داره وعلى أعمال جسمانية يطلبها منه رفاقه في الحي وبلا سابق تمهيد أو توعية ينقل إلى حي جديد به عمارات عالية متلاصقة ويجد نفسه داخل وحدة سكنية تبعد عن سطح الأرض بعدة أمتار وليس بداخلها أي شيء له علاقة بحياته السابقة سوى صنبور

مياه وحوائط ملساء، هل هذا هو ثمن إنقاذه من بيئة نعتبرها متدهورة مليئة بالأمراض الأوبئة أو هل الهدف هو نقله إلى تصميمات حديثة مكررة ومطبقة في كل مكان بغض النظر عن طبيعة الموقع وملائمة المبنى لجغرافية المكان والجو وطبيعة وعادات وتقاليد المجتمع الذي سوف نبني عليه هذه المساكن؟

فإذا كان هذا الذي يحدث فما فائدة شعار الشكل يتبع الوظيفة. أي وظيفة هذه؟ وكيف لها أن تتقمص هذا الشكل وداخلها إنسان يتحرك وليس إنساناً يؤدي وظيفة واحدة وهو ساكناً.

لا يجب أن يكون الهدف تصميمات جديدة ولكن يجب أن نختبر أفكاراً جديدة وكثيرة وتستكشف الملابسات التي تجعل من هذا التصميم أو ذاك نافعاً من عدمه وبدلاً من عمل نموذج يُطَبق في كل الظروف، يجب أن نخطط ونصمم لتشكيلات كثيرة من الضروريات والاحتياجات ويجب أن ننظر إلى كل تصميم على أنه فكرة وليس على أنه نموذج يُطَبق في طول البلاد وعرضها.

لا يجب أيضاً أن نتكلم عن التصميم وعن البيئة ولا نسمع كلمة عن الزراعة والخضرة التي لها أعظم الأهمية.

إن مالكولم ويلز يقول: «خذ بعيداً كل الحكومات والجيوش والصناعة وخذ المواصلات وخذ أيضاً السيارات والمدن والمستشفيات والمدارس والمكتبات. خذ بعيداً الكهرباء والملابس والأدوية والشرطة، خذ كل شيء واترك لنا المزروعات الخضراء وسوف يحيى معظمنا، ولكن إذا أخذت المزروعات فسوف نموت جميعاً».

إن الزراعة والخضرة تحوّل الإضاءة الطبيعية إلى طعام ووقود وأكسجين. إن هذه المزروعات هي التي تحمي التربة من الاضمحلال. إن المزروعات التي تتخلل المباني تفرقها عن بعضها وتقلل من كثافتها البنائية وتجعل العمارة تعتمد على الطبيعة لها جاذبية أكثر من العمارات المتلاصقة. ولكن للأسف فلقد حولنا أنفسنا إلى أناس صناعيين لنا قيماً صناعية، أناس يعيشون بعيداً عن جذور الحياة.

وإذا أقمنا حديقة لمجرد الذكرى فإننا نحوطها بأسوار من حديد وأكتاف من الأحجار الغشيمة والخرسانة المسلحة مما يعطي الانطباع بأن الجمهور غير قادر على العناية بأي شيء ويُنظَر إليهم على أنهم عصابات في

استطاعتهم تخريب المكان ويمكن أن يتسببوا في نشوب الحرائق وتلويث المياه والجداول وتحطيم المزروعات وإتلاف النباتات الطبيعية.

وإذا دخل الإنسان الحديقة فسوف يجد مقاعدها من الأحجار يصعب أو يستحيل تحريكها من مكانها إلى أماكن الظلال أو تجميعها لكي تستوعب مجموعات من الأصدقاء.

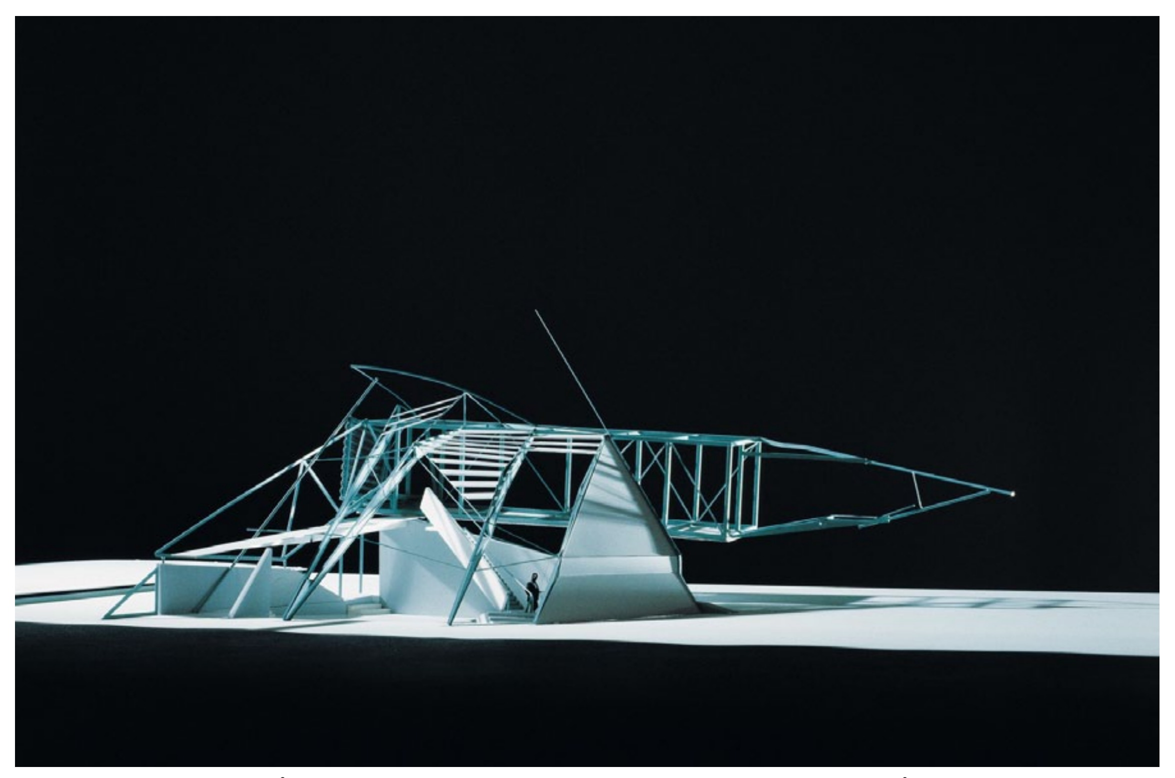
أما المقاعد الخشبية التي لها مساند للظهر فليس لها أثر أو مكان في الحديقة. وبذلك أصبحت الحديقة راحة للمسئولين ومتاعب للجمهور.

إن المساكن المتلاصقة التي تفتقد إلى كثير من عناصرها مباني سيئة لا تداخلها الشمس والهواء النقي تتسبب ليس فقط في التأثيرات السيئة على نفسية السكان وعلاقاتهم الاجتماعية ولكن أيضاً لها تأثير على حالتهم الصحية، فلقد ثبت أن هناك علاقة بين بعض الأمراض والأوبئة التي تبين أنها تعتمد على المباني السيئة والتي كان يمكن ألا تكون إذا كانت هذه المباني جيدة التصميم.

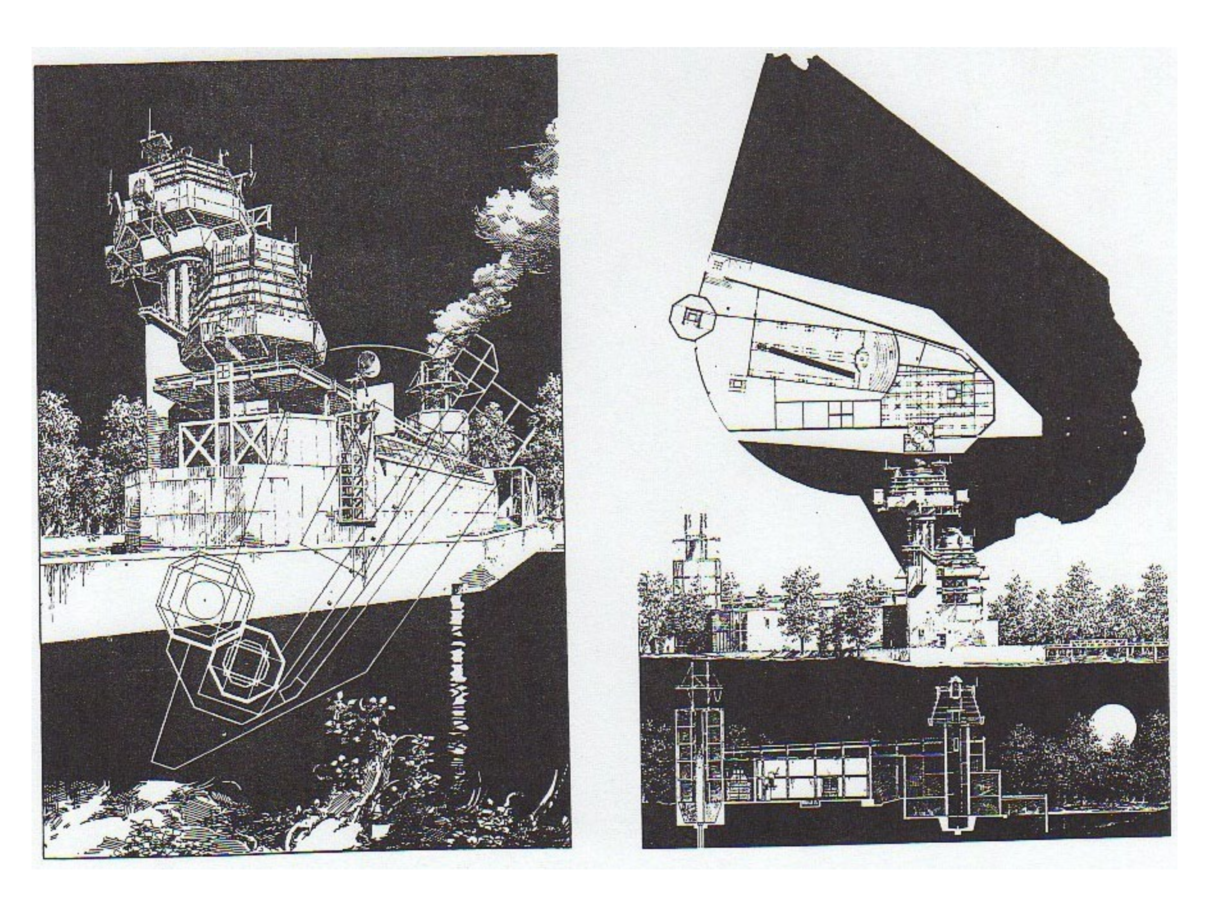
فمثلا وجد أن هناك علاقة مباشرة بين مجموعة من الأمراض الباطنية مثل الإسهال والدوزنتاريا والأميبا والحميات مثل التيفود والباراتيفود وطبيعة وحالات دورات المياة بالمبنى وكيفية استعمالها بواسطة المترددين عليها .

وبالإضافة إلى ذلك توجد مواقف كثيرة تنشأ من الاستعمال اليومي للأبنية والتي لا يشعر المرء بها ويجب أن يلفت النظر إليها منها الحوادث التي تنشأ الصدمات الكهربائية وانفجارات الغاز والأوبئة التي تنتشر بسبب سوء التهوية والاختناق والحساسية نتيجة تلوث الهواء والتعب والارهاق بسبب سوء الإضاءة وهذه كلها وغيرها لا يمكن قياسها بالأجهزة ولكن يشعر بها الإنسان بحواسه.

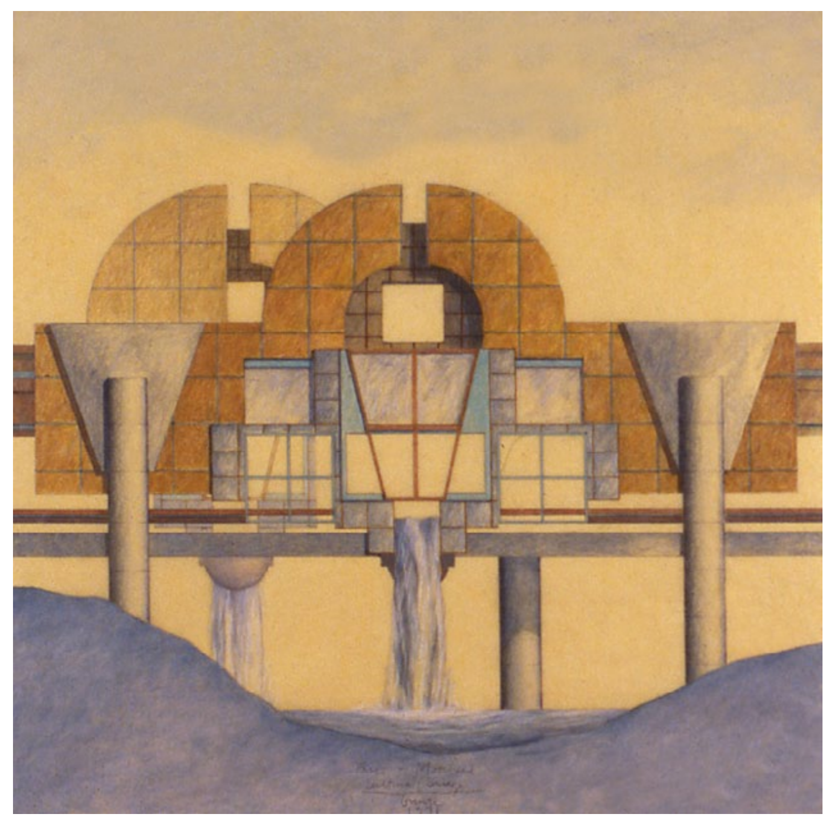
لقد اتضح الآن أنه من الصعب عمل مبنى جيد بالطرق التقليدية بمثل صعوبة عمل كبسولة فضاء بواسطة سمكري القرية.



المسكن المتفتح من أعمال مجموعة كوب هيميلباوى ١٩٨٣ يبين كيف يجب أن نفكر ونصمم ونبني في عالم يتطور بسرعة لا تريد المسكن المنغلق ولا الشارع المنغلق ولا الفكر المنغلق.



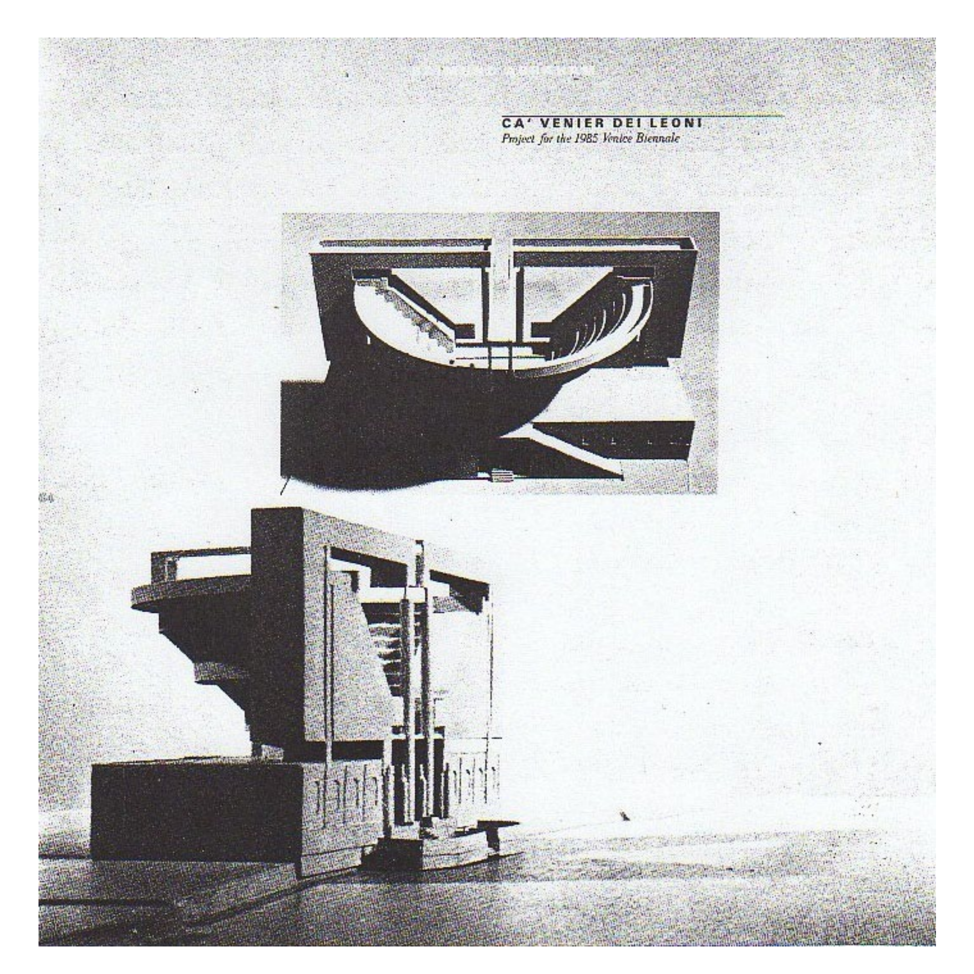
مشروع مبنى مركز التكنولوجيا الحديثة عن ليبوس وودز، الأبراج تستخدم كفراغات للأبحاث الفردية وباقي المبنى لعمل المجموعات. الإضاءة الطبيعية هي العنصر الأساسي في هذا التصميم تعبيراً عن التزاوج بين التكنولوجيا والطبيعة.



مبنى المركز الثقافي بمدينة نورث داكوتا بأمريكا من تصميم مايكل جريفز ١٩٧٧.



مباني سكنية في باريس من تصميم جورجيا بنامو، كريستسان دي بورتزامبارك ١٩٧٥. يثبت المشروعان السابقان عدم فاعلية شعار أن الصدق والجمال يعتمدان على التمسك بتعاليم المدرسة القديمة.



مشروع ببينالي فينسيا من تصميم فينييه داي ليوني ١٩٨٥، مبنى يساير عصره يستخدم التكنولوجيا البنائية الحديثة والمتطورة متطلعاً إلى جيل القرن الواحد والعشرين.